رسالة في استهلال شهر رمضان

ابن قزمان(•)

سلام على أنس المُجتهدين، وراحة المُتهجِّدين، وقُرَّة أعْيُن المُهْتدين، والذي زَيَّن الله به الدنيا، وأعزَّ به الدين. شَرَّف الله به الإسلام، وجعل أيامه رُقوما في عواتق الأيام، وشهوره غُرَرًا في جباه الأعْلام، وحَلَّ به عن رِقاب الأمة قلائدَ الآثام، ونَزَّه فيه الأسماعَ عن المكاره، وصان الأفواه من رَفَث الكلام. أشهد أن الله أثنى عليك، وأدخل من شاء الجنة على يديك، وخصك من الفضائل بما يمشي فيه التفسير حتى يَكِل، ويسأم ذلك اللسان ويَمَل، وأبادت ذنوب الأمة بمثل ما أبادت الشمسُ الظل، ذلك الذي يَتَهَلَّل للسماء هلالُه، ويهْتَزُّ العرش لجلاله، وتَرْتَجُّ الملائكة في حين إقباله، وتدخل الحُور العين في زينتها تكريما، وتلتزم إجلالَه وتعظيما، ويهتدي فيه الناس إلى دينهم صراطا مستقيما، وتُغَلُّ الشياطين على ما خُيِّلَت، وتذوق وَبَالَ ما كادت به وتَخَيَّلت، ويُشَمِّرُ التقي لعبادة ربه ذيلا، وتهبط الملائكة إلى سماء الدنيا ليلا، وينتظم المتقون في ديوانه انتظامَ السِّلك، ويكون خَلوفُ فم الصائم عند الله أطيب من ريح المِسْك، وتفتح الجنة أبوابا، ويغفر لمن صامه إيمانا واحتسابا، جزاء من ربك عطاء حسابا، وبما فضلك الله على سائر الشهور، وقضى لك بالشَّرف والفضل المشهور.

فرضك في كتابه، ومدحك في خطابه، حيث قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ...﴿١٨٥﴾﴾ (البقرة)، يعني تكبير الناس عليك، وتقليب أحْداقهم بالنَّظر إليك، حيث لُثِمَت بالسحاب، ونَظَرْتَ من تحت ذلك النقاب، وقد يمتاز الشَّيْبُ وإن استتر بالخضاب، حتى إذا وقف الأئمةُ منك على الصَّحيح، وصَرَّحوا برؤيتك كلَّ التَّصْريح، نَظَرتْ كلُّ جماعة في اجتماعها، وتَأهَّبَتْ القُرَّاءُ لإشْفاعها، واندفعَت الأصواتُ باختلاف أنواعها، وتضَرَّعت الألباب، وطلبت المواقف أواخر الأعشار والأحزاب، وابتديت ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ...﴿٢﴾﴾ (البقرة)، عندما أوقدت قناديلُ كأنما قد بَدَتْ في الصباح، ورَقَصَتْ رَقْصَ النَّواهد عند هبوب الرِّياح، و﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ...﴿٣٥﴾﴾ (النور)، فأمَّلَكَ المسلمون في سر وجهر، وحُطَّت أثقالُ السيئات عن كل ظهر، والتُمِسَت الليلةُ التي هي خير من ألف شهر، فنشط الصالحون بك صوما، وهجر المتهجدون في ليلك نوما، وأكْمَلْنَاك إنْ أذِنَ الله ثلاثين يوما.

فيا أيها الذي رحل، رحل بعد مُقامه، وقام للسفر من مَقامه، ورأى من قضى حقه، ومن قَصَّر في صيامه، فمشى الناس إلى تشييعه، وبكوا لفراقه وتوديعه، وندم المُضَيِّع على ما كان من تَضْييعه، ولم يثق بدوام العيش إلى وقت رجوعه، فعَضَّ على كفِّه ندما، وبكت عينُه ماءً وكبِدُه دما. رويدا حتى أمرح في ميدان فراقك، وأتضرع إلى حنانك وإشفاقك، وأتشفَّى من تقبيلك وتعنيقك، وأسَلَ منك حاجة إن أراد الله قضاها، وشاء نفوذها وإمضاها، إذا أنت وقفت لرب العالمين، فقبلك من قوم، وردك في وجه آخرين، أن تُثْني جميلا، فعسى يصفح لعهده وإن أسَاء، فعلم الله أني نويت التوبة أولا وآخرا، وأملت الأداء باطنا وظاهرا، وكنت على ذلك لو هدى الله قادرا، وإنما علم، من تقصير الإنسان ما علم، وللمرء ما قضى عليه به وحكم، وإن النفس لأمارة بالسوء إلا من رحم، فإن غفر فبطوله وإحسانه، وإن عاقب فبما قدمت يد العبد من عصيانه.

فياوحشة لهذه الفرقة، ويا أسفا على بعد الشقة، ويا شد ما خلفته لنا بفراقك من الجهد والمشقة، ولطالما هجر الإنسان بك ذنبه، وراقب إعظاما لكربه، وشرحت إلى أعمال البر قلبه. ومع هذا أتُراك ترجع وترى، أم تضم علينا دونك أطباق الثرى. فياويلتا إن حل الأجل، ولم يُقْض دَيْنُك، ورجعت وقد حال الموت بيني وبينك. فأغرب، لا جعله الله آخر التوديع، وأي قلب يستطيع!(••) ■

(•) هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبدالملك بن قزمان المعروف بابن قزمان الأصغر المتوفى (٥٥٥هـ).

(••) اختار هذه المادة الأستاذ عيسى الدودي من المغرب اقتباسا من كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة ، لسان الدين ابن الخطيب، م/٢ ، ص٤٩٨، مكتبة الخانجي في القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.